دعوة الى اتجاه جديد :

التربية الجنسية

للأديب يحيى هويدى

تشهد مصر الآن نهضة فى الاصلاح الاجتماعى ، لا يسع كل مصرى حين ينظر إليها وقد تغلغلت فى معظم نواحى الحياة إلا أن يؤمل من ورائها خيرا .

وعلى الرغم من أن هـذه النهضة جديرة بالاعجاب حقا ، وعلى الرغم من أنها خير ما تعتز به مصر الفتية ، إلا أنها ما زالت فى حاجة الى بعض التوجيهات التى لا غنى عنها فى نواحى لم ترسخ قدمها فيها بعد . وسأتحدث فى هذا المقال عن ناحية هامة أغفلها المشتغلون بالشؤون الاجتماعية ، ولم تحظ منهم بأى انتباه على الرغم من أهميتها وجوهريتها .

أرجع بعض علماء النفس المحدثين الدوافع الأساسية التى تسيطر على سلوك الانسان وتدفعه الى النشاط الى دافعين أصليين : دافع إرضاء الجوع ودافع ارضاء الحاجة الجنسية . وقد عالجت وزارة الشؤون المشاكل الاجتماعية التى تنتج عن تحقيق الدافع الأول ، وبلغت فى هذا السبيل مرحلة تحمد عليها ، فأنشأت مطاعم الشعب ، وتوسعت فى اطعام أبناء المدارس وما الى ذلك . ولكنها لم تعالج بعد والدافع الثانى المسيطر على السلوك ، وهو الدافع الجنسى . واذا كانت قد اهتمت به فاهتمامها لا يتجاوز مرحلة ضيقة من المراحل التى يظهر فيها هذا الدافع ، وهى المرحلة الأخيرة ، وأعنى بها مرحلة الزواج . مع أن هذا الدافع يظهر مبكرا جدا فى حياة الفرد ، بل إن ثمة دلائل معينة يستدل بها علماء التحليل النفسى على وجود هذا الدافع فى السنوات الأولى من حياة الطفل . ومهما يكن من شىء فعلينا أن نلاحظ أمرين لا سبيل الى مناقشتهما وهما :

(أولا) أهمية الدافع الجنسى فى السلوك الانسانى .

(ثانيا) أن هذا الدافع لا يبدأ بابتداء سن المراهقة .

والواقع أن سن المراهقة — وهى السن التى يظهر فيها هذا الدافع بشكل حاد ، ويتحدد ويتضح بعد أن كان غامضا مبهما — أقول إن مرحلة المراهقة من أخطر المراحل التى يمر بها الفرد فى حياته ، وقد تنقلب حياة الفرد فيها رأسا على عقب ، وقد يتحول مجرى سلوكه الى أبعد مما كان يظنه القائمون بأمره ، ومن أجل هـذا يجب أن يهيأ لها الفرد تهيئة صالحة حتى إذا ما وصل اليها ألفاها شيئا عاديا أو على الأقل ليس بغريب كل الغرابة . وهنا يتدخل عمل المشتغلين بالشؤون الاجتماعية ، ويضربون بسهمهم فى هذا الميدان .

فكل منا يذكر جيدا ذلك التحفظ وتلك القداسة التى كان يحاط بها جميع ما يتصل بالأمور الجنسية أمامه فى عهد الطفولة ، وأن والديه كانا يسعيان جهدهما فى ابعاده عن كل ما يتصل بهذه الأمور التى كان ينظر اليها — وما زال ينظر اليها — على أنها من هجر القول وفحشه . والأب الذى كان ينجح فى ابعاد الحديث فى هذه الأمور عن مسامع ابنه ،

أو الذى كان ينجح فى تغطية هذا الموضوع أمام الطفل ، وتحويل مجرى الحديث الى شىء آخر إذا فرض وسمع الطفل كلمة تتصل بهـذه الشؤون ، فاثارت اهتمامه فطفق يسأل عنها ويحالها شأن الأطفال عادة — أقول إن الأب الذى كان ينجح فى هذا كله ، كان يعتبر نفسه ناجحا فى تنشئة ولده .

وقد لا يلجأ الأب الى أمثال هذه الطرق ، إذ قد تثور ثائرته عند ما يسمع ابنه يتدخل فى هـذه الأمور ، ويندفع فى سورة غضبه باطشا بابنـه مهددا له ومنذرا بأقصى أنواع العقاب .

على أن عقلية الطفل ليست بالسذاجة التى يتصورها عليها أبواه ، ولن يقنع الطفل بهـذه الاجابة السريعة ولا بهذا التهديد المنذر . وأيا كان الأمر ، فان الطفل سيلاحظ من أول وهلة أن فى الأمر سرا يجب كشفه ، وأن والده لم يصارحه بالحقيقة التى لمح آثارها مستخفية فى لمحات وجهه ، ابتسامة مستورة أو حمرة تخجل علت وجه الوالد ... الخ. وسرعان ما يشب الطفل وينمو ، ولكن شيئا واحدا سيظل يعكر صفو حياته ويحتل من تفكيره جزءا ليس بالهين ، ألا وهو هذا التكتم الذى تحاط به هذه الأمور أمامه ، وهـذا التحرج من التحدث فيها ، وهو فى حضرة أفراد الأسرة الذين يكبرونه . ويظل الطفل على هذه الحال حتى يصل الى سن المراهقة ، ويكتشف من نفسه الدافع الجنسى ، ويصل الى حل السر الذى طالما أقلقه وحرص آباؤه على إخفائه عنه . واذا ما اكتشف فى نفسه هذا الدافع على حدته وعنفه ، فانه قد يتأثر بهذا الاكتشاف كل التأثر ، وقد يصاب من أجل هـذا بصدمة نفسية تظل ملازمة له مدى الحياة . ويجد نفسه بين قطبين يتجاذبانه ويشده كل منهما إلى جانبه : فيجد من ناحية أن هذا الذى اكتشفه فى نفسه ليس مما يحسن التحدث به جهرا أمام والديه إذ أنهما حرصا فى عهد طفولته على إبعاده من الحديث فى الأمور التى تتصل به . ويصاحب هذا التكتم شعور بالرهبة نحو هذا الدافع وما يتصل به لن يفارقه مدى الحياة . ويجد من ناحية أخرى أن هذا الدافع الجنسى قوى ملح ، لا يقوى على إهماله وإماتة التفكير فيه . وينشأ من هذا الصراع الذى قد يحتدم ويشتد حتى تغدو النفس فريسة له ، ويشل التفكير ، ويشاهد الشاب فى هذه الحالات فى حالة نكوص عن نشاطه المألوف ، وبعد عن الاختلاط الاجتماعى وما إلى ذلك — أقول إنه تنشأ من هذا الصراع أزمة نفسية حادة . ويذهب بعض العلماء والأطباء إلى أن معظم الأمراض العصبية والنفسية ناشئة عن هـذا الصراع الذى ينصب على الدافع الجنسى . فقد ذكر الدكتور " جيلبي " فى حديثه الذى ألقاه أمام القسم النفسى للمؤتمر الدولى للأنتربولوجيا أن نسبة الصرعى بالأمراض العصبية والنفسية فى الشعب الانجليزى بوجه عام ٣٥ ٪ وقال إن معظم المرضى المخصوصين الذين عرضت له حالاتهم كانوا ممن لم يتلقوا أية معلومات جنسية على آبائهم فى عهد طفولتهم .

ويقول "رانشى" فى كتاب عن " الزواج الصحى " :

" يستطيع المرء أن يقرر على نحو إيجابى قاطع أن أكبر عدد من الأمراض العصبية والهستيرية فى هذه الأيام يمكن أن يرجع إلى تربية خاطئة فى الصحة الجنسية " .

ولم تختلف مناهج التربية التعليمية عما كان يقوم به الآباء نحو أبنائهم فى المنازل فيما يتعلق بهذه الشؤون . فكانت نظم التربية وأبحاث الكتاب إلى ما قبل خمسين سنه خلت ، خالية تماما من الحديث العلمى عن الامور الجنسية . فقد اتجهت التربية إلى الناحية العقلية فى الفرد فحسب ، وأخذت على عاتقها تنمية قواه الإدراكية وتزويده بمختلف أنواع العلوم والمعارف ، كأن الانسان فى نظرها عقل محض ، فلم تكن بهذا وسيلة إعداد للحياة الحقة ، بل كانت على هامش الحياة . وتحرج الكتاب أيضا عن الكتابة فى هذه الموضوعات ، إذ كانوا ينظرون اليها نظرة اشمئزاز ونفور ، وكان الخير كل الخير فى نظرهم أن يحيطوها بالكتمان وألا يتعرضوا لها فى أحاديثهم . فكانوا بهذا يرون أن حل المشكلة فى الهروب منها ، مع أننا نعرف أن الهرب من المشكلة أسوأ الحلول لها — إذا كان ثمة مايدعو إلى أن نسميه حلا على الإطلاق — إذ أن الحل لايسمى حلا إلا إذا قضى على المشكلة ، والهروب منها يدعها قائمة . ولسنا فى حاجة إلى القول بأن الآثار التى ترتبت على اتباع هذا المنهج فى الشؤون التعليمية لم تختلف عن الآثار التى ترتبت على اتباعه فى التربية المنزلية : أمراض عصبية ونفسية ، شعور بالرهبة أمام الدافع الجنسى فى حين أنه يجب أن يمحى هذا الشعور اطلاقا ، تهالك على إرضاء هذا الدافع فى مرحلة المراهقة ، إذ أن الشاب سينظر اليه على أنه من الأمور المحظورة كما ساعدت على ذلك تربيته المنزلية والتعليمية ، وكل محظور مرغوب فيه كما يقولون ، وما إلى هذه الآثار الخطيرة .

تدارکت التربية الحديثة فى معظم أمم العالم المتمدن هذا الخطر الداهم وسعت إلى حل المشكلة الجنسية حلا موفقا . وكان سبيلها الى ذلك هو ملاقاة المشكلة وجها لوجه ، والعدول عن الطريقة القديمة . إذ أنه كما يقول "والترجا ليشاى" فى كتابه عن نفسانية الزواج " يجب ألا نخجل — كما صرح بذلك أحد آبائنا اليسوعيين — من الحديث عن الأعضاء والوظائف التى طاب لله أن يخلقها ويضعها فينا ... ... لقد عالجنا الطريقة التقليدية التى كانت تلزم الصمت حول هذا الموضوع ، وتوليه الازدراء ، ووجدنا أنها فى حاجة إلى تعديل ، وفى وسعنا أن نتفادى ونتسامى بالحياة الجنسية فى أزمتنا الحديثة فى مجتمعاتنا الحاضرة ، بكل ما فيها من نزعة حسية خطيرة ، ومآس وسخريات للحب ، وأمراض ومتاعب أخلاقية وعقلية لاحد لها — اقول إنه فى وسعنا أن نتفادى هذا كله ونتسامى به عن طريق واحد هو المعرفة والعطف الإنسانى " . والمقصود من المعرفة هنا هو تلقين بعض المعلومات الجنسية الى الأطفال ، ذلك يقابل التكتم الذى كانت تحاط به هذه الأمور قديما ، كما ان المقصود بالعطف هنا أن الأمور الجنسية لايمكن أن تعالج بالعنف والتأنيب ، بل إن صاحبها أدعى إلى النصيحة منه إلى العقاب .

و إلى مثل هذه الدعوة دعا كثير من المهتمين بشؤون التربية فى العالم المتمدن ، وبخاصة فى انجلترا وأمريكا . فنادوا بضرورة تلقين الطفل بعض المعلومات الجنسية ، حتى إذا

ماوصل إلى سن المراهقة لم يجد فى الأمر مايدعو الى الغرابة . ولم يقصدوا بهذا أن يحاط الطفل بجميع الأمور الجنسية إحاطة تامة ، بل كل ماقصدوه ألايكون الطفل خالى الذهن من الأمور الجنسية بل يجب أن يلقن بعض المعلومات عنها فى صورة قصصية جذابة. وقد جاء فى تقرير الأساقفة فى "اجتماع لامبث" الذى عقد سنة ١٩٣٠ ماترجمته : "من المهم جدا أن يطلع الطفل على المعلومات الخاصة بالجنس فى جو من البساطة والجمال قبل أن يستيقظ الدافع الجنسى فيه بالفعل، أى قبل سن المراهقة". ومن أهم مايسترعى الطفل فى حياته ويود معرفته دائما هو : كيف ظهر إلى هذه الحياة ؟ ومن الذى أتى به اليها ؟ فعلى الوالدين ، وعلى الأم بصفة خاصة، ألا تلجأ الى المداورة والخداع، بل عليها أن تجيب ابنها أو ابنتها عن هذه الأسئلة فى صراحة بسيطة، وعليها أن تعرض عليه قصة حياته مقربة فى ذلك بينه وبين النبات والحيوان حتى يشعر الطفل بأن الأمر عادى مشترك بين جميع المخلوقات . ومن أحسن ما كتب فى هذا الموضوع الكتاب الذى كتبه "شقاينتز" وهو "كيف يولد الطفل" ، وهو قصة موجهة إلى الطفل ليقرأها ويرضى بها تلك الرغبة الملحة فى معرفة هذا السر الدفين الذى لا تنفع فى حله أية مراوغة أو مداورة أو تهديد ، وفى الكتاب عرض طريف مبسط لهذه المشكلة، مبتدئا من النبات ومشير من ذلك إلى حبوب اللقاح وأعضاء التأنيث فى الزهرة، ومارا بالأسماك فالطيور فالحيوان حتى يصل أخيرا إلى الإنسان . حتى إذا ما كبر وشب الطفل لم يجد نفسه أمام شىء غريب يصطدم به ، بل سيجد نفسه أمام شىء حدث به مرارا فى حياة الطفولة وصور له ، باعتباره شيئا طبيعيا ، ووظيفة مشتركة بين جميع المخلوقات .

فعلى الآباء الذين يودون أن يجنبوا أطفالهم حياة حسية مملوءة بالشرور فى شبابهم أن يسارعوا فيعرضوا عليهم قصة ظهورهم إلى الحياة، ويحادثوهم فى المسائل الجنسية بشكل ظريف يسد رغبتهم فى الاستطلاع، التى قد تتخذ صورة حادة فتفسد عليهم حياتهم كلها، فيجنبوهم بذلك أزمات عصبية خطيرة فى شبابهم . وعلى المربين أن يهتموا بهذه الناحية فى نظمهم، فيلقنون الأطفال بعض معلومات مستمدة من علم الوراثة ، ويشرحون لهم تراكيب أجهزتهم التناسلية ووظائفهم الجنسية وما إلى ذلك. وقد دل الاستفتاء الذى قامت به "كاترين ديفيز" بين النساء المتزوجات ، على أن ٥٧ ٪ منهن ممن يرين السعادة فى حياتهن الزوجية كن قد تلقين معلومات جنسية عامة فى حياتهن الأولى .

وكان من أثر هذه الدعوة أن تنبهت الحكومات الراقية إلى خطر الطريقة التقليدية، وأنشأت بالفعل ما يسمى بالمراكز الطبية لرعاية الأطفال. وتتكون هذه المراكز من دكتور فى الأمراض العصبية والنفسية، وعالم نفسى، ومشتغل بالشؤون الاجتماعية. وفى هذه المراكز يتلقى الأطفال معلومات جنسية عامة على ما يسمى بالهيا كل التجسيمية. وقد أنشئ أول مركز من هذه المراكز فى شيكاغو ثم فى نيو يورك ثم فى لندن حوالى سنة ١٩٣٠.

وبعد، فأنا موقن بأن ما جاء فى هذا المقال لا بد أن يلقى قبولا من الآباء أولا وقبل كل شىء، ومن الحكومة ثانيا.

يحيى هويدى
ليسانسيه فى الآداب — قسم الفلسفة